الممارسات الثقافية للشباب في البلاد العربية ـ السودان نموذجاً

تحقيق الوجود الذاتي والقدرة على الحركة الحرة

(شهادة شخصية)

راشد دياب(*)

عندما أسترجع مسار كيفية تكويني كشابّ سوداني يمتلك موهبة فنية، مثلاً، أجد أن حياتي كانت عبارة عن إحباطات وتوسّلات، ورغبة كبيرة في البحث وتقصّي ماهية الفن نفسه، والبحث عن مصادر الثقافة، فيما كانت تنقصني موادّها الأساسية التي كنت أتمنى أن تشكّل مرجعية تسمح لي ببناء شخصية غنية بالعلم والثقافة والدهشة. على المستوى النفسي كنت أعاني من إرهاق عظيم نتيجة تحفّظ الأسرة تجاه الفنّ كمصدر لكسب لقمة العيش، يغذّيه ضعف المفهوم العامّ لقيمة الفنّ والفنّان في السودان .

أكتب هذه الشهادة بوحي من تجربة ذاتية، أسترجع فيها طرق التفكير التي كانت تحيط بوجودي: من تعليم مُستلب، وواقع اجتماعي متحفّظ، ونُظُم سياسة شموليه متردّدة، وجوانب أخرى من التكالب الجماعي على جمع الثروة واستهلاكها، والتباهي بالقدرات المادية. هذه صورة يمكن أن تتّضح أكثر إذا تصوّرنا كيف أن دعم المعرفة، من خلال تسهيل إتاحة الحصول عليها، سيوفّر على الشباب الوقوع، في مرحلة معينة من تطوره، في فراغ ذهني

(*) فنّان من السودان، أسس «مركز فنون رشيد دياب»

ونفسي، أو في حالة من الاحتجاج الهشّة تنعدم فيها مصادر منظّمة على شكل تجمّعات وتنظيمات تدعم الممارسات الثقافية للشباب بأسلوب محبّب، وقريب إليه، متناسب مع مراحل التغيير في حياته. وتكتمل الصورة في غياب الإجابة عن الأسئلة المحيّرة في أذهان الشباب وكل ما يتعلق بالفنّ، وخاصة في ما يتعلق بالمفهوم السائد للدين وللشرائع، وتخلّف الحركة الفكرية التي ترى في الفن نوعاً من الترف، بل تعدّياً على الحكمة الإلهية في تفسير صيرورة الكون والواقع.

إن عادات المجتمع وتقاليده كانت تشكل، هي أيضاً، حاجزاً نفسياً محبِطاً لكثير من التساؤلات التي كانت يمكن أن تكون إيجابية الأثر في المراحل التي ذكرتها. لقد نشأتُ في مناخ يعمل على تشتيت المعاني العفوية والفكرية، أو تلك النابعة من الفرد نفسه؛ فمجتمعنا لا يُقدّر الفنّان إلاّ بعد أن ينهال عليه الثناء من قِبل جهة أو ثقافة أخرى، ما يؤدّي بالشابّ إلى تجنّب المبادرة الفردية والقمع الذاتي لروح الاكتشاف، لينتج عن ذلك طمسُ الإبداع وهزال الهوية الفردية، واستنساخ أجيال تحمل أفكاراً بائتة ومزاعم هالكة.

هذا جزء من موقف خاص. وأنا أكتب للشباب عن تجربة في مرحلة لم تتوفّر فيها وسائل الاتصال الحالية، من إنترنت وخلافه، لكن التوْق إلى اكتشاف المجهول سمة أساسية في تفكير الشباب، ففترة الشباب تقتضي أن يكون هناك معنى والتزام وانتماء وهدف ووسائل لتحقيقها أو آليات ومرجعيات لتوصيلها .

قد يكون حصر موضوع الممارسات الثقافية للشباب في محاور محدّدة صعباً، بسبب طبيعة التداخل والتقاطع بين مكوّنات التكوين الثقافي للشباب والممارسات الثقافية .لكن لا بدّ من تحديد بعض المحاور، والتي أختصرها في أربعة أساسية، تتفرع منها نقاط كثيرة تعمل على وضع صورة تقريبية لنوعية وكيفية طرح هذا الموضوع الهامّ من خلال تجربتي الذاتية، ورحلة معقّده في بلد ما زال في مرحلة البحث عن الذات.

تمهيداً، أشير إلى أن حركة الشباب ترتبط في المجتمع بحركة العقلانية في السياسات التربوية والمنهج التطبيقي، من أجل تحقيق أهداف معيّنة في مرحلة تاريخية. في هذه الشهادة عن الممارسات الثقافية للشباب في العالم العربي أتحدث عن السودان كنموذج، وأسترجع مراحل تكوين النظام التربوي والثقافي والإنساني

كحاضن لبناء شخصية متفاعلة، منتمية وباحثة عن الأصالة والتفرد.ولا يخفى أن مشاريع التخطيط البنيوي للتعليم والتربية على الجماعات كالمجتمع السوداني تؤثّر على مستوى التجارب الإنسانية، وعلى صياغة الأسس القيمية للنجاح، والتي تتأسس، في الفترة الأولى من تطوّر الفرد، عبر اكتسابه المعارف. سأتطرّق إلى ذلك في المحور الأول من هذه الشهادة، إلى جانب معالجة اتجاهات متعددة يغلب عليها تأثير الأسرة والشارع والمجتمع.

المحور الأول

يتعلق بالهوية وعلاقتها بالممارسة الثقافية، وبدور الشباب في المجتمع وطبيعة وجوده كطاقة معزولة خارج إطار التيارات الاجتماعية المكوّنة للفعل الثقافي والحضاري، باعتبار أن الشباب في حالة تكوين، وتعلّم، واكتشاف، وهدنة. وهو يمثّل قطاعاً كبيراً جداً ومهمّاً يربط بين حلقات المجتمع الأولى والمجموعة العارفة المتولّية للمسؤولية، أي جهات الاختصاص والموكلة إليها مهمّة التنفيذ، مما يعني البحث في كيفية تحوّل الهوية من مرحلة الطفولة العفوية البسيطة إلى الإدراك العقلي المتميز. وهذا في الأصل لا يتم الاّ بالترغيب في نوعية الحركة الفكرية، والمؤثرات الداخلية والخارجية على نمط التفكير، لأن التيار الاجتماعي المسيطر يؤثر بصورة مباشرة على بناء الشخصية الفعالة في المجتمع، ذات الخصوصية النابعة من الهوية، وقد يحمل، وبحسب الحالة، بذور التغيير نحو الأفضل، أو الثبات على المفاهيم المحافظة.

إن الهوية، في رأيي، حالة من التأقلم والانفتاح والضبط لمعايير التباين الثقافي، وهي مرتبطة بالذات وبمصلحة الجماعة في الاستمرارية. إن الهوية لا تنفصل عن الواقع والبيئة، وذلك بغضّ النظر عن مفهوم البحث عن الهوية الثقافية. وبمعزل عن دواعي البحث في الهوية نفسها، فهي مكوّن طبيعي في وجود الناس، فلا يوجد إنسان بدون هوية.

لكن حاجة الشباب إلى اكتشاف الهوية في الأصل هي أحد مظاهر الفعل القسري المفروض على الفرد لمواجهة أغراض الهويات الأخرى التي تحاول أن تطمس تشكّل هويته. فهويّة الإنسان لا تنفصل عن واقعه وتاريخه وتحرّكه نحو أي هدف، وكيفية تحقيق ذلك الهدف. لذا كان من المهمّ أن يبحث الشباب لاكتشاف هويتهم من ناحية

المعنى والقيمة، لتكون الأساس الصلد لبناء شخصياتهم المقاوِمة للفعل القسري المذكور، في سبيل تحقيق نموّهم الثقافي كطاقة متجددة في نسيج المجتمع.

إنّ غياب القيادة الحكيمة والقدوة، وضعف الديمقراطية، إن في الأسرة أو في المدرسة أو في الدولة، يعملان على تغييب «ثقافة الحواس»، ويؤديان إلى الشعور بالتهميش وبالتقصير في القيام بالأدوار المهمة، وفي صنع القرار تحديداً .وفي السودان تؤثّر النزعة التسلّطية في إحداث تشابه في النخبة أو في القيادات الحكيمة. إن اعتبار الشباب مشروعاً مستقبلياً، ستقوم من بينه قيادات المجتمع، يترافق مع مفهوم الهوية الذي ذكرناه آنفاً؛ فالقيادة توصيل لمعاني الهوية، واستدراك حثيث ومتطوّر للقيم، ومثال قدوة للتواضع ودحض الاستعلاء، ولاحترام كرامة الإنسان ووجوده. فلا سبيل إلى وجود مجتمع معافى فيه مجموعات شبابية ملتصقة بأرضها إلاّ بوجود قيادات حكيمة وقدوة مُعتبرة لا تجافي الحقيقة.

ولا ننسَ التأثيرات القطبية للقيادات السياسية التي تركّز على فئات الشباب لخدمة أغراضها؛ وهي أغراض مفروضة عليها في أغلب الأحيان، مثل المشاركة في الحروب الأهلية وتسييس الجماعات الشبابية بإيديولوجيات وإغراءات مادية. هذه الإغراءات وتلك الإيديولوجيات تؤمّن للسلطة استمراريتها، لكنها تُفقد البلاد مخزونها المستقبلي الواعي.

نشير إلى أنه، وفي فترات سابقة من التاريخ انتقلت، لأسباب عنصرية واقتصادية، مجموعات كبيرة من الشباب من إفريقيا، كما حدث في القرن الثامن عشر، مثلاً، حين خُطف شباب من الأفارقة وبيعوا كعبيد مما أدّى إلى تعثّر تطّور التنمية في القارّة السوداء. لكن التحرّكات الجماعية أصبحت الآن منهجية وعقلية، وتمثّلت بهجرات العقول (أو ما يعرف بـ«هجرة الأدمغة»)؛ وهذه ليست بدون تأثير على تكوين الشباب. ولعلّ أقوى وأصعب الهجرات التي تتزايد يومياً وتشكّل أكبر مشكلة للشباب هي الهجرة إلى عوالم افتراضية. فالشباب يعيش حالة من الخيال التعويضي للهروب من إفرازات الواقع. في هذه الحالة، تصبح التربية التي كانت تعتمد على الطبيعة والمجتمع والقيم المثلى وتجربة الأجيال مجرّد صدى بعيد، وهمهمات تتنافى مع ما يتلقّونه من معلومات وتصوّرات لم تكن تخطر على بال الأجيال السابقة، مما جعل مهمّة إعداد الأجيال مهمة صعبة للغاية، وأدّى إلى تحويل الشباب إلى نسخ متكررة للنقل الحرفي، وتحويل المجتمع إلى طاقة مُكدّسة من عدم التفعيل لتنمية هذه الفئة التي تشكل مرحلة مفصلية في مستقبل الأمة.

إن معالجة هذه المعضلة ليست من مهمة التربية فقط، أو التعليم المدرسي المعروف، أو بتجديد النظم والمناهج، بل لا بد أن تحدث ثورة من داخل هذه الفئة، تغذّيها المؤسسات المحيطة من الفئات الأخرى، مدركة أبعاد ثورة المعلوماتية ووحدة المصير الإنساني داخل إطار الخصوصية المحلية. وذلك لأن حلّ مشكلة الشباب في السودان، بالذات، تدخّلت فيها عوامل دينية واجتماعية وثقافية. فلا يكمن الحلّ في إنشاء الجامعات الخاصة، ولا في توفير فرص للدراسات العليا بصورة عفوية، بل يكمن بالبحث في بنية العقل ونوعية الهوية والتركيز على المعرفة المرتبطة بها.

إن الآلية أو الطريقة التي يُمارس بها العمل الثقافي في العالم العربي، والسودان بالذات، ينبغي أن تدخل ضمن فكرة القيادة الجماعية للمصير المشترك بين وحدات المجتمع، وهي التي تتطور من ذاتها لبناء المشاريع والتخطيط المتواصل خلال شبكة معقدة تبدأ بالتصور الديني للعلمانية، والعلمانية كحالة تجرّد ذهني وعلمي منهجي مستقل، أو فكرة التفرّد والتميّز التي يسبغها المجتمع بصفة تلقائية على كل أفراده، مما يعزّز خبرة كل فئة عمرية. والدليل على ذلك قيمة اكتشاف الموهبة. هذا التفرّد من خصائص المراحل الأولى لوجود الإنسان في العالم، ويصاحبه حتى فترة الشباب وما بعدها.

إن التركيز على المعرفة يؤدّي، في أغلب الأحيان، إلى احترام الإنسان لنفسه وميوله ورغباته، مما يحمّل الشباب عبئاً في انتقالهم من مرحلة الطفولة إلى التغيير في مرحلة المراهقة، من غير أن يرافق ذلك وعي «الهوية» وكيفية التعامل معها. وهو ما يفسّر سرّ التشابه المقصود في ميول الشباب وطموحاته بصورة عامة، ويُعزى أيضاً إلى غياب الديمقراطية التي تحدثنا عنها.

لكنّ فرض **تطوير** الخصوصية المكتسبة للأجيال السابقة على الشباب يفضي إلى إعداد المجتمع ككل، وتحويله إلى مجتمع إيجابي، سخيّ وملتزم بمبادئ معينة مشتركة، ويهدف في الأساس إلى تربية الأسرة على تحمّل مسؤوليتها في تنشئة المرحلة الأولى، ثم المدرسة في تكثيف النشاطات والممارسات الثقافية لاكتشاف القدرات، وتوظيف حركة المدّ الاجتماعي بصفة عامة. وضبط هذه الآلية بمفاهيم مدروسة ينتج فكراً إنسانياً متّزناً يمثل القدوة في منهجية التحضير للحياة. إن الممارسات والنشاطات المذكورة تتمثّل بالتدريب المباشر، أو بطرح ما ينتجه المجتمع المتطوّر من خلال الفنون والثقافة والإدارة الحكيمة.

إن فكرة التدريب المباشر تعني تسخير كافة الخبرات المتاحة في المجتمع بشكل آليات، وتعني، أيضاً، استحداث قنوات ممتدة في اتجاه فئات الشباب بوعي وتواضع لبناء ثورة جديدة في التعليم المستمر. ويتمّ ذلك عبر تشكيل وحدة متكاملة من الأسرة والمدرسة والمجتمع، ليتضمّن اختلاف الأجيال في المنهج والرؤى .وهذه مسألة قد تبدو سهلة نظرياً ولكنها تعتمد على القوة الفعلية المحركة والمنتجة للمجتمع الذي تنتمي إليه و بالعمل على الحدّ من هجرة هذه القوة المنتجة، مما يؤثر في محصّلة الحساب على المستوى الجمعي في تلك المجالات بالنسبة للشباب. إن فكرة التدريب تعمل على الحدّ من الفراغ العلمي والثقافي في المجتمع الذي كان نتيجة حتمية لعوامل النبذ/الطرد التي يختبرها الشاب في المجتمعات الشمولية، مترافقة مع وجود قوى جذب في البلاد المتقدمة، في الوقت نفسه، والتي تهدف إلى استقبال أفضل العقول والأدمغة، كما حدث في السودان في مراحل الانقلابات العسكرية.

نخلص إلى أن وجود الشباب في مجتمع متقلّب، ومتوجّس من التجريب والاكتشاف، ومن المقاومة من أجل التغيير، ومتقوقع في التقاليد والعادات، قد حرمه ـ أي حرم الشباب ـ من اكتساب القدرات العقلية والآلية المثلى للتقييم. وهو ما أدّى إلى قصور في مدارك الشباب وتراجع قدراتهم على التحليل الموضوعي، أو توسّل المناهج البحثية في اكتشاف الآلية المناسبة لتجاوز تلك المعوقات التي ذكرناها، مما عزز حالة الإحباط، وانعدام الهدف.وهنا تتجلّى مشكلة العجز في ربط العلاقات بين الأجيال المختلفة لبناء شخصية الشباب الحقيقية ذات الأبعاد الاجتماعية الإيجابية كي يسهموا في تنمية ثقافتهم المحلية، وتفعيل مشاركاتهم في استمرارية الثقافة وتطويرها.

المحورالثاني

إن الممارسات الثقافية والفكرية، كما الفعل الإبداعي، مرتبطة جميعها بمعاني التحرر والحرية؛ نقصد بذلك التحرر الفكري الملتزم بقضايا المجتمع كما هي الحال في الفنون المسرحية، مثلاً، أو السينما أو الفنون الاستعراضية. إن هذه، في الأساس، بمثابة تحقيق لرغبة كامنة في الاكتشاف والاستمتاع بالحياة وتجديد الطاقة في المجتمعات النامية. فالفنون التشكيلية، وفنون التصميم، تعمّق العلاقة بالمحيط البصري، باعتبار أن الفن هو الإنسان، مضافاً إلى الطبيعة، لأنه نشاط تلقائي حرّ، ويجسّد قدرة الإنسان على

إمداد نفسه بلذّة قائمة على الوهم، لخلق أشكال تُسرّ. والممارسات الثقافية والفكرية هي بمثابة وسيلة اتصال بين الناس أيضاً، لكنها تتجاوز الكلام العادي واليومي، كما يظهر في الشعر والأدب. فالفنان ينقل عواطفه بطريقه شعورية عادية، وببراعة في إثارة الانفعالات لدى الآخرين، فتغدو تعبيراته الفنية وسيلة لنقل تجربة الشباب الفردية والاجتماعية كرسالة تعينهم على تفهّم العالم.

لذا كانت طاقة الشباب الإبداعية مهمّة لأنها تملك الأحلام المستقبلية ؛ وكل ذلك يستلزم الصنعة والمهارة التي تسمح بامتلاك القدرة على التعبير. فالممارسات الإبداعية تحتاج إلى محتوى فكري ناضج، أو أسلوب خاص يحمل هموماً وتطلعات، وتلك الرغبة في الثورة المنشودة.

من هنا تبرز ضرورة قيام مؤسسات تعمل على استيعاب الطاقات الإبداعية. وتمهيداً لذلك ينبغي إجراء دراسة شاملة، ومسح دقيق للطاقات الشبابية، وإنشاء مكاتب للمعلومات، ومؤسسات تُعنى بإيجاد نظم القروض العلمية والفنية لتحقيق هذه الممارسات في الواقع. إن قيام هذه المؤسسات من شأنه أن يؤثّر بصورة مباشرة في إتاحة فرص العمل الإبداعي لأكبر عدد من الشباب، باعتبار أن العطالة لا يعبّر عنها في عدم وجود أي عمل ولا في عدم إنجاز أيّة مهمة فقط، بل بالتحقق من وجود الرغبة، ومن الإتقان في التعبير الفني وفي تقديم إضافة ما. وهذا معنى آخر للممارسة الثقافية.

وحيث اهتم كثير من الباحثين بزمن الفراغ عند الشباب، ودرسوا آثاره الاقتصادية على المجتمع، لكنهم بدَوا جاهلين بأن هناك نوعَين من العطالة: الأولى المعروفة المتمثّلة بعدم أداء أي عمل، والعطالة الثانية المتمثّلة بأداء عمل بدون رغبة بالقيام به. فليس المهمّ، كما ذكرتُ، أن ينجح الشاب لنفسه فقط، بل في كون عمله وإنتاجه في خدمة مجتمعه. إن ذلك بمثابة استخدام العاطفة الاجتماعية بطريقة شعورية إرادية في سبيل بناء مجتمع حر، عن طريق الفن والممارسة الثقافية. ويتحقق ما نقول عبر إطلاق المبادرات الفردية، ومحاولة صهر الشباب، أو إدخالهم في النسيج الاجتماعي، وتجنّب محاولات أدلجتهم، أو إدخالهم ضمن أجهزة المؤسسات الحزبية كملاذات آمنة. ففي هذه المؤسسات لم تعد السياسة تهدف إلى خدمة الشباب، بل تحوّلت مهنة، لتُمسي المؤسسات نفسها ملجأ لهؤلاء الشباب في ظل العجز عن مواجهة التحديات الكبرى للنظم الشمولية.

إن عملية استيعاب الطاقات الإبداعية تتحقق باكتشاف هوية الفكر، ثم تنظيمها وربطها بهوية الشباب، والعمل على تغيير نوعية العلاقة والترابط بين التكوين الاقتصادي والسياسي من جهة، والثقافي من جهة ثانية. وهذه أصبحت جميعها، كما لا يخفى، دُولية التعبير؛ فلم يعد بمقدور الشباب اتخاذ خيار العزلة، بحكم ترابط وسائل الإعلام والاتصال والإنتاج في مختلف المجالات في دول العالم. وهو ما يحتّم سيادة فكرة الاستقلال النسبي، ويدفع إلى إبراز الخصوصية المحلية، والتأكيد على التمكّن من الانتقاء الحرّ من الثقافات الدولية.

نشير إلى أن الاستقلال لا يعني الرفض، ولا اتخاذ موقف «نحن» مقابل «هُم»؛ بل اتخاذ موقف يهدف إلى اختيار ما هو مفيد، دون أن تكون عملية الاختيار عملية عشوائية، ولا متحيزة. ولا يتمّ تحقيق هذه المعادلة ما لم يحقق الفكر المطروح، العقلاني الوجهة، توازناً بين إيجاد صلة الترابط مع المنظومة الفكرية الثقافية العالمية، وبين تعادل خصوصيات المحلية. إن التعادل المذكور لا يمكن تحقيقه إلا بمعرفة المحيط الثقافي الداخلي، وصفاته وقيمه، عن طريق التربية والتعليم، بتوسّط منهج تعليمي هادف وواضح. وهو ما يقودنا إلى المحور الثالث من شهادتنا.

المحور الثالث

يُعنى هذا المحور بالثورة التعليمية والمعلوماتية، حيث تتشابك وتتنازع قدرات الشباب بين ثورة المعلومات، وبين التراث والقيم المحلية. في هذا المجال نميّز بين منهجين: الأوّل يعتمد على الثقة الزائدة بالنفس، والثاني ناتج عن الثقة الضعيفة بالنفس. هذا المحور مهمّ لأنه يشكل خلاصة التجربة في المحاور الأخرى، ويقوم بإبراز الصلة بين ظاهرة شيوع الإنترنت والتدفق الكبير للمعارف، وبين ظاهرة ضعف الهوية والحس الوطني والانتماء.

استعرضنا سابقاً الحيثيات الكامنة خلف المحاولات المستميتة لاستقطاب الشباب، والتي تعِدُهم بفرص تسمح بحياة أفضل، من خلال تقديم الإغراءات العاملة على الجذب المنظم لإمكانياتهم. وبيّنّا أن ذلك مترافق مع غياب الدولة عن أداء دورها في توفير بدائل تعمل على استثمار الثروة البشرية، عبر إنشاءات وتجهيزات وبرامج وتنظيم في جماعات وفرق للشباب في الريف والحضر، وعبر تهيئة بيئة

للبحث العلمي والفني والثقافي. كما بيّنا الحاجة إلى إجراء دراسة شاملة، ومسح دقيق للطاقات، وإنشاء مكاتب للمعلومات، وإجراء إصلاح تعليمي شامل يتأسس على مشروعات المجتمع المدني غير الرسمية، من أجل تلبية طموحات الشباب، على أن تكون لدوافع غير سياسية، وغير منتمية لجهات معينة، وأن تكون قادرة، أيضاً، على استيعاب الطاقات الشبابية، وجعلها قادرة على تجاوز حالات اليأس والإحباط والعنف غير المبرر، أكان بدوافع دينية، أم غير ذلك. كما يتعيّن عليها معالجة الأسباب التي تحدّ من إنتاجهم الإبداعي والفني والثقافي، وتعيقهم عن أداء أدوارهم الاقتصادية وحتى الفكرية، ومكافحة تأثيرات الإعلام والأقران والتقليد والمحاكاة والاستهلاك غير الجيد للمنتجات والمفاهيم الغربية، والعمل على تحييدهم من تأثيرات الحروب التي يشهدها العالم، والتي تستمدّ وقودها من الشباب، فهي تستخدمهم وتبدّد الموارد وتكبح إمكاناتهم العلمية والفنية.

هذا النهج في التحليل يجب أن يُبنى على إضافة موادّ أو مقرّرات إلى جميع مراحل الدراسة، على أن يُعهد بوضعها إلى مجموعة من المتخصصين في المجالات المعنية. والمواد التي أرى أن تكون جزءاً من المناهج الدراسية، يمكن حصرها في أربعة مواضيع، أجدها ضرورية لتأهيل وإعداد فئة الشباب لتغذية التغيير من الداخل، كما ذكرتُ، أي من داخل فئة الشباب نفسها إذا تسلّحت بها.

وهي أولاً، مادة «السلوك الحضاري» التي تعلّم الشباب طبيعة التصرّف الملائم، والاعتماد على سلوك واضح مدروس. وهي خليط من مجموعة سلوكيات تعارفَت عليها الأمم، وتشتمل على المُثُل العليا للثقافات المختلفة. أما المادة الثانية فهي «علم التذوّق الفني». هذا العلم يهدف إلى تنمية القدرات على استشفاف الرؤية والمحيط، وتنمية روح الجمال في الفنون المختلفة، ومحو أمية الحواس؛ وذلك بالإضافة، أو بالحذف، للمتعلقات البيئية من الأشكال المحيطة، مما يسمح للمتلقي بإعادة تقييم واقعه بنظرة إيجابية ويجعلة أكثر انتماءً لما حوله. أما المادة الثالثة، فهي «الثقافة». وهذه تحتاج لمنهج متشعب ومتناسب مع التطور العمري للشباب. ففي كل مرحلة يُحدّد منهج يوضّح فكرة الثقافة ومعناها، ومدى حركة الوعي بمداركها كمظهر أساسي من قيام الحضارات، باعتبار أن الثقافة هي المظهر المادي للحضارة. أما المادة الرابعة فهي مادة «فلسفة الفنون والنقد الفني»؛ وهذه متصلة بدراسة الفنون التطبيقية، وتشكّل الجانب النظري الذي لا غنى عنه .ولعلّ عدم

الاهتمام بهذه المادة، حتى في كلية الفنون الجميلة والتطبيقة في السودان، مثلاً، كان له أثر واضح في تقييم الفنان، والعمل الفني عندنا. وليس المقصود هنا دراسة المدارس الفنية الغربية، أو أي تصنيفات غير نابعة من مجهود متخصصين وباحثين من البلد نفسه، بل قصدتُ من كلامي وجوب وضع التفاصيل لهذه المناهج. فنحن في العالم العربي، عموماً، نجنح ونقفز إلى نتائج، وإلى تقييم نتاج الشباب، مثلاً، بدون أن نضع في حساباتنا نوعية المناهج التي كان من المفترض أن تكون جزءاً من تكوين شخصياتهم. أما على صعيد النخبة والمثقفين في الوطن العربي، فنحن نجد أن بعضهم لا يمتلك رصيداً كافياً من الثقافة والفهم الحضاري، ولا من التذوّق أو الفلسفة المبنية على التربية المتواصلة في مراحل التعليم المختلفة .وهذه جميعها تؤثّر مباشرة في الممارسات الثقافية، وتمكّن فئة الشباب، بالذات، من الإفادة من تجاربهم الذاتية في طرحهم الثقافي، وفي إنتاجهم في المجالات الثقافية المختلفة: في السينما والمسرح والفنون التشكيلية، وحتى في الأعمال الغرافيكية والأدب والشعر؛ مما يجعل عملية التجديد، أو الحداثة في العمل الفني لدى هؤلاء الشباب، تخضع لعاملَي التجارب الخاصة، من جهة، وللمعرفة العميقة بأسس العمل الإبداعي، من جهة ثانية.

يضاف إلى المنهج النظامي بمواده المقترحة، التدريب على هذه المواد بالطريقة الآنفة الوصف. وهذا من شأنه الحدّ من عملية الاستهلاك العشوائي للثقافات المهيمنة، وتأمين اتصال ندّي إزاء ثقافة التكنولوجيا. إن التدريب من شأنه، أيضاً، تعزيز الانتماء للثقافة المحلية، مترافقاً مع الرغبة بالمعرفة عن الثقافات الأخرى المبثوثة عبر قنوات الاتصال المختلفة.

وهناك مقررات أخرى يمكن أن تكون ضمن المناهج السودانية بالذات. أشير في هذا الصدد أنه كان لزاماً عليّ، مثلاً، أن أعيد إعداد نفسي لمقارعة الثقافات الأخرى بالرجوع، بصورة فردية، إلى مراجع خارج نطاق المدرسة. وذلك من أجل مقارعة حجج وذرائع يقدّمها بعض المتعصّبين الأصوليين، من أجل عدم تدريسها في المناهج الجامعية. ومنها على سبيل المثال، لا الحصر، تدريس مفهوم الجنس في المدارس، وطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وتدريس بعض الكتب السماوية المنزلة الأخرى للمقارنة، وكثير من العلوم التي كان لا بدّ أن تترافق مع حال التكوين الذهني للإنسان السوداني، من أجل إثراء حلقات النقاش التي أصبحت، حالياً، المجال

الأساسي للتعبير. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو: كيف نتوقّع أن يكون للشباب السوداني حوار جادّ، ولغة واعية في حلقات النقاش وتبادل المعلومات في (الفيس بوك) عبر الإنترنت والمدوّنات، إن لم يكن مزوّداً بقاعدة من الوعي والفهم؟ كيف يسعنا أن نمنع تحوّل استخدام هذه الوسائل العصرية إلى مجرّد وسائل للترفيه ولضياع الوقت في القضايا الانصرافية؟

نلاحظ، في هذا السياق، أن أغلب حلقات النقاش، أو التبادل بين العاملين في الإبداع الفني، تُختصر في حلقات ظاهرية وشكلية، منصرفة عن البعد الاجتماعي، أو هي لا تُقام، في أغلب الأحيان، لغرض فائدة المجتمع. وأنا أرى أن الجماعات الافتراضية كان يجب أن تكون نافذة لبعث صور من الواقع الاجتماعي العربي الحقيقي والسوداني. لكنها تحوّلت إلى مهرجانات كشفية، واستقرّت، أحياناً، على منازعات وجدال في مواضيع فوق الحقيقة الماثلة في الواقع. إن هذا التشابك بين الافتراض والوهم والخيال، عبر التقنيات المعاصرة، وفي جوهره، ينطوي على عواقب وخيمة مستقبلاً. والسؤال المطروح آجلاً سوف يكون: كيفية الفصل بين الواقع والخيال والافتراض الوهمي؟

المحور الرابع

هذا المحور هو، في حقيقة الأمر، تلخيص لما جاء في شهادتي هذه، أو إضاءات لزوايا قد أكون تطرقت لبعضها. لكنه، في الأساس، يبحث في لغة الخطاب العامّ، لا في مشكلة المخاطبة أو اللغة المقتصره على الشباب. وما أقصده بـ«اللغة» يتمثّل بالتجاوب المبني على المعايير القياسية والموجّهة بقوانين غنية بالمفاهيم والأفكار. ونحن نحتاج إلى جهد متواصل كي نغني أنفسنا بها، كما سبق وذكرت في معرض طرحي لفكرة التعليم المستمر، والذي لا يقف عند جهود الأسرة أو المدرسة أو المجتمع، في سعيه إلى تحقيق الأهداف العليا. فالشباب اليوم يحتاجون إلى القدوة والقيادة الحكيمة، كما ذكرت في المحور الأول، من أجل مساعدتهم على تحقيق هذه الأهداف .وعلى هذه القيادة تترتّب مهمّة اكتشاف الظواهر قبل أن تستفحل تأثيراتها. فالمجتمعات تحكمها الظواهر التي تبدأ صغيرة ومتفرقة، لكنها تتجمّع في نهاية الأمر، لتشكّل تياراً يصعب صدّه. هذا هو الدور الأساسي الذي يجب أن تقوم به مؤسسات متخصصة بالكشف المبكر عن هذه الظواهر قبل أن تصبح أعراضاً. نشير إلى أن هذه المسألة كانت تعالج في السودان بما يُسمى

بتطبيق «قانون العيب»، أي أن كلّ المجتمع كان يتحمل مسؤولية السلبيات والأخطاء، بدون استثناء. لكن، ولدى تعدد الوسائل والأقنية، تحوّل الوضع، فباتت المسائل تُطرح بشكل عامّ، أو بطريقة غامضة عبر الشاشات، مثلاً. هكذا، تتفشى ظاهرة الإدمان على المخدّرات والانحلال الخلقي، وكثير من الممارسات الاجتماعية التي تنخر في عضد الشباب، والتي يعزوها البعض إلى الفراغ والعطالة، ويدرجها آخرون ضمن ضعف الوازع الديني، لكنها في حقيقة الأمر نابعة من ملل الأجيال الجديدة من الخطاب الجمعي العاجز عن طرح البدائل المقنعة. ونحن نرى أنه حين يتحول المجتمع إلى ناقد لعادات وتقاليد ومُثل، فإن ذلك دليل على وجود عافية. لكن عندما تنفصل قيادة المجتمع عنه، وتنعزل وتنكفئ على نفسها، ينتفي الحوار وتضيق نوافذ اللغة. وهذا ما سوف يحدث في المستقبل للأجيال القادمة لأن أفرادها سوف يُمسكون، لا عن الحوار وعن اللغة، فحسب، بل عن الحسّ بالوجود الاجتماعي، والأسرة ضمناً، وسوف يهيمون في سماوات بعيدة لا يمكننا تصوّرها. فالمشكلة الآن، كخلاصة لهذا البحث والمحور الأخير، ليس في ما يمكن ان يكون ناتج شباب اليوم بل ما يهيّئه شباب اليوم لشباب الغد.

في خاتمة الحديث عن الشباب ودورهم في تحقيق الممارسات الثقافية لأية أمّة، أودّ أن أؤكّد أهمية ثلاثة عناصر في هذا المجال: الخيال المُنتج لفكرة جديدة، والاستعداد لتقبّل الفكرة الجديدة، وتوفير القناة التي تسمح بتدفق هذه الفكرة في شرايين المجتمع. وقد وضّحت في المحاور السابقة قيمة العنصر الثالث المختص بالمشاركة الجماعية في الممارسات الثقافية، وأحب أن أضيف في ختام هذه المحاولة النابعة من تجارب وملاحظات وهموم ذاتية، أن عملية التطوّع للعمل الفني من إعداد وتقييم وتقدير وتحضير وتمويل، وتوفير كلّ التجهيزات لخلق الجو المادي الصالح للممارسة الثقافية، أو الاجتماعية، تعتمد على التطوّع أو الرغبة في استمرارية تلك الممارسات المجتمعية. إن المُنتج للثقافة هو الفنّان في المجتمع، وليس الدولة؛ والممارسة الثقافية هي تظاهرة لحلقات من الوعي متصلة، ومتعة في المشاركة في خلق عالم جديد.